الباب الرابع
فى
فضائل الآدمى
ومعرفة الخالق من الخلائق من صورته

obeikandl.com

اعلم -هداك الله تعالى- أنّ الإنسان أفضل المخلوقات وأكرمها على الله عز وجل وأكملها وأحسنها خلقاً بما أودع الله فيه من بديع حكمته ورفيع صنعته؛ وذلك أنّ الله تبارك وتعالى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وفضله على سائر خلقه وركبه فى أحسن صورة ، قال الله تعالى فى محكم كتابه لإبليس اللعين ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص:٧٥] . وقال تعالى للملائكة ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين**﴾ [الحجر :٢٩] وقال تعالى ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّن خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء : ٧٠] وقال تعالى ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين :٤] . وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((إن الله خلق آدم على صورته))(٩٦) . وهذه الصورة ليست بمعنى صورة جوهرية معقولة(٩٧) الشكل ، كالإنسان ونحوه من الجواهر المجسمات المدركات بالحس ، وإنما هى صورة معلومة الوجود بالمعنى المفهوم بالعقل لا بالحس والخيال دل بها على معرفته ، وهى كما يقال : صورة المسألة كذا وكذا ونحوه من أسماء المعانى ، فمن اعتقد وقدر أن لله صورة جسمية جوهرية ثم صورها فى نفسه وعبدها فهو عابد صنم على الحقيقة -كما قدمنا- لأن الله تعالى منزه عن كل شىء فى ذاته

---

(٩٦) جزء من حديث أخرجه البخارى ، كتاب الاستئذان ، باب بَدْءُ السَّلام (٦٢٢٧) ، ومسلم فى كتاب البر والصلة (١١٥) ، أحمد فى مسنده (٢٤٤/٢) كلهم عن أبى هريرة . وقال ابن حجر : واختلف إلى ماذا يعود الضمير ؟ فقيل : إلى آدم ، أى خلقه على صورته التى استمر عليها إلى أن أهبط وإلى أن مات ، دفعها لتوهم من يظن أنه لما كان فى الجنة كان على صفة أخرى ، وابتدأ خلقه كما وجد لم ينتقل فى النشأة كما ينتقل ولده من حالة إلى حالة . وقيل : الضمير لله وتمسك قائل ذلك بما ورد فى بعض طرقه :((على صورة الرحمن)) . والمراد بالصورة الصفة ، والمعنى أن الله خلقه على صفته من العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شىء . [فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥/١١] .

(٩٧) فى النسخة (ع) ، (ك) : مفعولة .

وصفاته وأفعاله ، وكذلك قول الله عز وجل ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠] . وقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم: ((كلتا يدى ربى يمين))[٩٨] ونحو هذا إنما هى يد قدرة فى المعنى ، كما يقال : يد الأمير على الناس والأمير والناس فى يد السلطان .

ومعلوم أن كل واحد من السلطان والأمير والناس منفرد ، إن كل واحد من السلطان والأمير منفرد عن الآخر على حدته ، فقد صح أن المعنى يد قدرة ، فكذلك قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] . ليس هذا الاستواء معلوم الكيفية المجسمة كجلسة السلطان على كرسيه وسريره ونحو ذلك ؛ إنما هو معلوم بمعنى القدرة والاستيلاء عليه بالقهر والغلبة بالملك والقهر . واستولى على ذلك[٩٩] ؛ قال الشاعر:

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سيف ودم مهراق

وليس استواءه أيضاً بعد عجز ؛ إنما هو على قدرته التى هو عليها قبل خلق العرش وبعده ، وهو الآن على ما كان عليه من القدرة والعظمة ولا يحول ولا يزول عما هو عليه البتة ، ولكن أخبرهم أن العرش هو عظيم الخلقة عند سائر المخلوقات فى العجز والافتقار إلى الله تعالى كأحقر شىء منها ، وأن الله تعالى هو الذى خلقه أعظم المخلوقات ، واستولى عليه بالقهر والقدرة ، فهو حقير عند الله تعالى -وإن استعظموه- وأن الله هو العظيم الذى لا يقاس شىء بعظمته ، لأنه منزه عن العجز والانتقال من حال إلى حال ، قديم أزلى وأخير أبدى ، لا يعتريه النقص عند الكمال ، ولا التغيير من

---

(٩٨) ذكره الزبيدى فى الإتحاف [٢/١١٠، الهيثمى ١٠/٣٤٤] وعزاه إلى مسند أبى يعلى من حديث ابن عمرو ، قال : رجاله رجال الصحيح غير الحسن بن حماد وهو ثقة .

(٩٩) فى النسخة (ع) ، (أ) : غير موجود به هذا البيت .

حال إلى حال[١٠٠] . وكذلك قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((ينزل ربكم إلى سماء الدنيا ، وذلك فى النصف من كل ليلة ، فيقول : هل من داع فأسمعه ....))[١٠١] الحديث . فليس هذا النزول كالتحول المجسم من مكان إلى مكان ؛ كنزول جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض ؛ وكنزول الإنسان من على ظهر دابته وسريره ؛ إلى الأرض ، إنما هو نزول صفة ملاطفة ورحمة يدنو بها إلى العبد فيقربه إلى كرمه ورحمته ، كما دنا بذلك إلى حبيبه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث قال تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم:٨]. يعنى : جبريل عليه السلام يوم سأله النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يريه صورته التى خُلق عليها ، فانتشر له ستمائة جناح حتى سد الأفق من المشرق إلى المغرب فخر النبى صلى الله عليه وآله وسلم مغشياً عليه ، فدنا منه جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين وضمه إلى نفسه . وفى ذلك بيان قدرة الله تعالى وبيان صفة الملاطفة والرحمة عند الدنو الذى

---

(١٠٠) فقد تأول الخلف الاستواء بالاستيلاء وشاع عندهم تبرير ذلك متجاهلين إتفاق كلمات أئمة التفسير والحديث واللغة على إبطاله ومع ذلك فإننا لا نزال نرى علماء الخلف -إلا قليلاً منهم- سادرين فى مخالفتهم للسلف فى تفسيرهم لآية الاستواء وغيرها من آيات الصفات وأحاديثها . وأخرج الدارمى فى الرّد على الجهمية ص٣٣، عن جعفر بن عبد الله قال :(جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال : يا أبا عبد الله ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكاً وَجَدَ من شىء كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضاء (يعنى :العرق) وأطرق القوم ، فسُرّى عن مالك وقال : الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة) . وهذا موافق لقول الباقين على نحو ما جاء به على لسان أهل السنة وعلمائها، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتاب [العلو للإمام الذهبى] ، ومن قبله إمام الحرمين الجوينى فى رسالته [الاستواء والفوقية] .

(١٠١) جزء من حديث أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب صلاة الليل مثنى مثنى (١٦٣) ، وأحمد فى المسند (٢٥٨/٢) عن أبى هريرة بلفظ :((إذا بقى ثلث الليل نزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا ، فيقول : من ذا الذى يدعونى فاستجيب له.....)).

قال فيه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:٩] . قال المفسرون قدر قوسين، وقيل قدر ذراعين ، وهو حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، أو أدنى فيما تقدرون أنتم .

وأما الله سبحانه وتعالى ، فهو عالم بمقادير الأشياء ولكنه خاطبنا بما نفهم من عادة كلام العرب ، فأخبرا أنه قَرَّبَ النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقَرُبَ منه بصفة الملاطفة والرحمة حتى كان أقرب من قاب القوس الذى هو بالقياس أقرب من سماء الدنيا إلى الأرض فيما يُقدر عند صفة ملاطفة سائر العباد بالرحمة والكرم ، فكل مَنْ اعتقد لله تعالى فى هذه الصفات معنىً مجسماً ؛ فإنما هو مشرك بالله كافر به ، غير منزه لله تعالى فى عقيدته ، خارج فى مذهبه عن الشريعة والحقيقة .

ولنرجع إلى ذكر الصورة من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ((إن الله خلق آدم على صورته))[١٠٢] . أى دل : بخلق صورة آدم ﷺ على علمه ومعرفته . وذلك أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام من روح وجسد .

فأما الجسد : فهو دال بالإشارة على جميع الخلائق كلها بأسرها من العرش إلى الفَرْشِ[١٠٣] . ليس من ذلك شىء إلا وفى الإنسان نسبة مشيرة إلى معرفته ، ولا يفقد من ذلك ذرة إلا وهى مودعة فى شخصه ؛ فهو عالم أصغر ونسبة مختصرة بجميع الموجودين : العلوى والسفلى ، يقرؤها أولو البصائر والألباب الراسخون فى العلم .

وذلك أن قلب الإنسان فى النسبة كالعرش ، ودماغه كالكرسى ، ورأسه كالسموات ، وجثته كالأرضين ، وحواسه كالملائكة ، وعظامه كالمعادن ، وشعره كالنبات ، ولحومه كالحيوان ، ودمه كالبحار ، وعروقه كالأنهار ،

---

(١٠٢) تقدم تخريجه فى هامش (٩٦) .

(١٠٣) فى النسخة (أ) العرش . والفرش : هو الفضاء الواسع من الأرض .

ونسمه الحار كطبيعة الحرارة ، ونسمه البارد كطبيعة البرودة ، وريقه كطبيعة الرطوبة، وأثقاله[١٠٤] كطبيعة اليبوسة ، وأخلاطه الأربعة كالعناصر الأربعة ، وفرحه كالربيع، وغضبه كالصيف ، وحزنه كالخريف ، وخموله كالشتاء ، وتبسمه كالنسيم ، وضحكه بالتبسم كالبرق ، وقهقهته كالرعد ، وبكاؤه كالمطر ، وسكونه كالليل، وحركته كالنهار ، ونومه كالموت ، ويقظته كالحياة ، إلى غير ذلك مما لا يحصى عدده من المناسبة للعوالم العلويات إلى طريق هذا العالم الطبيعى فى جسده والله أعلم وأعز وأكرم .

وأمَّا الروح : فإنها روح لطيفة لاهوتية[١٠٥] مودعة فى كثيفة ناسوتية[١٠٦] دالة بإشارة المعنى على معرفة البارى عز وجل فى ذاتها وصفاتها وأفعالها .

وأما الذات : فإن الروح التى بها حياة الإنسان وحركته وحسه لا ترى ولا تدرك بنظر محسوس ولا تُحد بحد ، ولا توصف فى الجسد بأين ولا كيف ، ولا تُخَص منه بموضع دون موضع ؛ بل هى فى كل مكان منه معلومة الوجود بفعلها ، وهى مستترة عنه بذاتها . وفى ذلك إشارة إلى أن الله تعالى فى عالمه الأكبر كذلك .

وأما الصفات : فإن الله تعالى جعلها واحدة فى الجسد مدبرة له ؛ ليعلم أن الله واحد مدبر لجميع خلقه لا شريك له فى ملكه ﴿**وَلاَ يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَداً**﴾ [الكهف :٢٦] . وأيضا فإن الله تعالى خلقها أَوَّلَ الجَسَدِ ، وتكون حية باقية إذا مات وفنى . وفى ذلك إشارة إلى الله تعالى ، أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ، ومنه بدأ الخلق وإليه يعود ، وبه الحياة والموت ، وهو حى لا يموت .

---

(١٠٤) فى النسخة (ك) : أفعاله .

(١٠٥) جاءت من اللاَهُوت : الأُلوهَة وأصله لاه بمعنى إله ، زيدت فيه الواو والتاء مبالغة؛ ويقصد نسبة الروح إلى الله وتعلقها به ، وهو من كلام الفلاسفة اليونانيين .

(١٠٦) أى الطبيعة الإنسانية .

وأيضا فإن الله تعالى جعلها عليمة بما فى الجسد جميعه قديرة عليه كله وفى ذلك إشارة ؛ إشارة إلى أن الله تعالى بكل شىء عليم وهو على كل شىء قدير، ونحو ذلك من الصفات الدالة على معرفة الله عز وجل .

وأمّا الأفعال : فإن النفس لها إرادة تظهر عن إرادة الله عز وجل ؛ وذلك أن الروح تتحرك أولا بإرادة الله تعالى فى القلب الذى هو نسبة العرش، ثم تنقل تلك الإرادة إلى الدماغ الذى هو بيت النفس والحركة والحس وهو نسبة الكرسى وتحرك الحواس التى هى نسبة الملائكة ، فينزل ذلك إلى الجسد الذى هو نسبة الأرضين فيحدث من ذلك الإرادة النفسانية ما تصوّر أولا فى خزانة القلب كائنا ما كان من كتابة أو قراءة ونحو ذلك من فعل أو قول أو غير ذلك ، فيخرج مافى عالم غيبها إلى عالم شهادتها . وفى ذلك إشارة إلى أن الله تعالى فى عالمه الأكبر كذلك إذا أراد إظهار شىء من عالم غيبه إلى عالم شهادته ؛ أحدثه أولا إلى العرش الذى هو كالقلب فى النسبة فيتحرك العرش بما أراد الله تعالى أولا كما تحرك القلب ، ثم تنزل تلك الإرادة إلى الكرسى الذى هو نسبة الدماغ ، ثم إلى السماوات التى هى نسبة الرأس ، ثم تنزل بها الملائكة الذين هم فى النسبة كالحواس إلى الأرض التى هى كسائر الجسد ، فيكون ما أراد الله تعالى إظهاره من عالم الغيب إلى عالم الشهادة معدنا كان أو نباتا أو حيوانا ، كائنا ما كان ، فقد وقع العلم بخروجه من القوة إلى الفعل بالنسبة النفسانية التى أودعها الله فى الإنسان وأجراها فى مشيئته وإرادته وقدرته وحوله وقوته ، ودل بذلك على حقيقة معرفته .

فإن قال قائل جاهل : هل هذا إذاً سنة[١٠٧] الله ؟

فالجواب له : تعالى الله عن ذلك وتقدس وتنزه عما قال الجاهل ؛

---

(١٠٧) فى النسخة (ك) : شبه .

فإن الروح ليس لها قدرة إلا على جسدها وحده ، ولا علم لها إلا بما فيه ، والله على كل شيء قدير وبكل شيء عليم . وأيضا فإنها ضعيفة عاجزة مقهورة بما يوقعه الله تعالى عليها من خير أو شر لا تستطيع لذلك دفعا ولا نفعا ويقضى عليها بفراق جسدها الذى هو أحب الأشياء إليها ، فتفارقه كرها عند الموت المقدر عليها وعلى جميع المخلوقات ، من الله تعالى ذى القوة القاهرة والعظمة الباهرة[١٠٨] ، وهى مخلوقة مسخرة تجرى فى جميع أحوالها تحت حكمة الله وإرادته وقضائه ومشيئته بحوله وقوته وعلمه وقدرته ، والله عز وجل منزه عنها وعن جميع المخلوقات بذاته وصفاته وأفعاله . فليس كما قال الجاهل ؛ وإنما هى فى جميع ما ذكرنا من ذاتها وصفاتها وأفعالها دالة على : علم الله ومعرفته وقدرته وعظمته، بالإشارة النفسانية فى الصورة الإنسانية التى هى: أحسن الصور المخلوقات وأتمها خلقا ، وقد نبه على ذلك فى محكم كتابه ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ**﴾ [فصلت : ٥٣] . وأيده من السنة الحديث الذى بنينا عليه هذا الباب من قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ((إن الله خلق آدم على صورته))[١٠٩] .

فهذا ما أردناه من فضائل الآدمى ومعرفة الخالق والخلائق من صورته وقد أودع الله تعالى فى الإنسان نفسه وفى تركيب صورته ، من العلم والمعرفة والحكمة بتدبير العقل ما يستخرج به جميع العلوم الغامضة الطبيعية وغيرها ، والله أعلم ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١٠٨) فى النسخة (أ) : الناصرة .

(١٠٩) تقدم فى هامش (٩٦) .